

58 - أساس شهادة كراستوس

وقد فهم أنّ هذا أيضا لن يمكن تصديقه، إذ يقال إنّه في السّاعة الثّانية*، وهو لم يترقّ بعد طعاما ولا شرابا، باع شهادته تلك. لذا كتب أنّه وجد تلك الأشياء بهذا التّحو: لما عاد من الإسكندريّة قصد رأسا بيته الذي كان كونتيانوس قد بارحه. هناك وجد في الوصيد ريشا كثيرا متناثرا، ووجد كذلك الجدران متسخة بالسّخام فسأل عن السّبب خادمه الذي تركه في أوبة، فأخبره عن طقوسنا اللّيلّيّة أنا وكونتيانوس. فأبى تليفق ذكّي واختلاق يسهل تصديقه، أتني إن شئتُ حقّا فعل شيء من ذلك لم أفرّ فعله في بيتي بالأحرى، وأنّ كونتيانوس - الذي يساعدي والذي أذكرهنا اسمه مع أسمى آيات التّقدير والتّناء للصّداقة الحميمة التي تربطني به ولسعة علمه الفريدة وفصاحته البالغة أقصى درجات الكمال - أنّ كونتيانوس إذن، إن كان قد تناول دواجن في عشائه أو ذبحها كما يزعمون لغرض السّحر، لم يكن له غلام يكنس الرّيش ويرمي به في الخارج، وفضلا عن ذلك أنّ الدّخان كان من الكثافة بحيث صير الجدران غرابيب سودا، وأنّ كونتيانوس حمّل في غرفته أين يقيم مثل تلك القذارة!

هراء ما تقول يا إمليانوس وتخريف لا يصدّقه أحد إلا إذا كان كراستوس ربّما قصد مباشرة لا غرفته كما ادّعى بل الموقد كما اعتاد. ثمّ من أين حزر عبد كراستوس أنّ الحيطان دُخنت بالليلّ خديدا؟ أمن لون الدّخان؟ فلعلّ دخان اللّيلّ مختلف عن دخان النّهار وأشدّ منه سوادا. لكن لم قبل عبده المرتاب بأمره والحريص على بيت مولاه أن يترك كونتيانوس يرحل قبل تنظيف البيت؟

لماذا بقي الرَّيش، كأنَّه حُشي رصاصاً*، ينتظر كلَّ تلك المدة عودة كراسسوس؟ فلا يلمُّ كراسسوس عبده: الأرجح أنَّه هو الذي اختلق كلَّ تلك الأكاذيب عن تدخين الجدران والرَّيش ما دام لا يستطيع حتَّى في شهادته البعد عن المطبخ طويلاً.

59 - سبب غياب كراسسوس

لكن لِمَ قرأتم الشَّهادة من مذكرة الاتِّعاء؟ أين هو كراسسوس وفي أيِّ مكان على الأرض يوجد يا ترى؟ أعاد إلى الإسكندريَّة قرفا من بيته؟ أم هو مشغول بتنظيف الجدران؟ أم، وهو الأرجح، يلهي ذلك البطن القصف وتشراب الخمر؟ فلقد لحته أمس هنا في صبرانة*، وسط ميدان القصبه بقيء لك* بنحو لافِت يا إميليانوس. سلُّ مدوَّنيك* يا مكسيموس - وإن يكن ذلك العرَّيد معروفاً عند الحَمَّارين أكثر ممَّا هو عند المدوَّنين - أقول مع ذلك سلِّهم إن رأوا هنا يوتوس كراسسوس الأويِّي، فسوف لا ينفون.

فلُيرنا إميليانوس ذاك الفتى الكرم الذي استند إلى شهادته! ترى أيَّة ساعة من النَّهار هي الآن. أقول إنَّ كراسسوس ما زال يغطُّ في نومه ثملاً، أو هو يرشح عرقاً محمَّلاً بأبخرة الخمر في حَمَّام أتاه لثاني غُسل ليذهب إلى مجلس شرب فيسقي مجدداً عشاء البارحة عللاً على نهل، إنَّه حاضر ويخاطبك يا مكسيموس لا بشخصه الكرم بل من خلال مذكرة. لا لأنَّه لم يتجرَّد تماماً من كلِّ حياة، فحتَّى لو كان أمام عينيك لما استحي من الكذب، بل ربَّما لأنَّه لم يستطع كبح إدمانه ولو قليلاً حتَّى يمكنه الانتظار إلى هذه السَّاعة دون شرب، أو بالأحرى تدبَّر إميليانوس أمر إبعاده.

كيلاً يمثل أمام عينيك الصَّارمتين مخافة أن تشيح اشـمئزازاً من هذا الوحش إذ تراه وقد خبلته الخمر وتعتتته، وترى هيئته المزرية وحكيه الأملطين، ورأسه الأجرد على حدائته من اللحية والشَّعر، وعينيه المنتفختين من السُّكر وجفونه الورمة، وشدقيه المنفرجين، وشفتيه الترائلتين، وصوته النَّاشز ورجفان يديه وجشَّوؤه المقرف، ومنذ أمد بدَّ الهنُّ كلَّ ثروته ولم يبق شيء ممَّا ترك له أبواه غير بيت واحد لبيع الأكاذيب ما أجره مع ذلك أبداً بأعلى ممَّا فعل في شهادته هذه، إذ باع لإميليانوس كذبتة الخمورة بثلاثة آلاف درهم ولا أحد في أوية يجهل ذلك.

60 - مؤامرة دنيئة ضدَّ أبوليوس

كنا جميعاً نعلم بذلك قبل حدوثه، وكان بوسعي منعه بالتبليغ عنه لولا علمي بأنَّ كذبة يمثل هذا الحمق تضربُ إميليانوس الذي عبثاً راح يشتريها لا بي أنا الذي ظللتُ محمَّماً أذريها، أردتُ أن يتأذَى إميليانوس ويخزي كراسسوس بعهر شهادته، من جهة أخرى عُقدتُ قبل أمس صفقة يعلمها الجميع في بيت المدعو روفينوس الذي سأحدِّث عنه الآن بوساطة وترتيب روفينوس هذا وكُلُّبريانوس. وقد فعل روفينوس ذلك بسرور، سيما لعلمه أنَّه سيعود على زوجته - التي يتستّر على مخازيها - وهو يعلمها بقسم غير قليل من العمولة. رأيتُ أنَّك أنت أيضاً يا مكسيموس ارتببتَ لحكمتك بتأمرهم وتألَّبههم عليّ، وبدا على وجهك، فور إحصارهم تلك العريضة، احتقارك لدسيستهم بأكملها. أخيراً ورغم ما أوتوا من جسارة نادرة وسفاهة مشطَّة، لم يجروؤوا مع ذلك على قراءة شهادة كراسسوس كاملة أو الاعتماد على شيء ممَّا

جاء فيها، وهم يرونها تعقب برائحة فضلاته. هذا وما ذكرت هذه الأمور خوفاً من فزاعة الرّيش وفرية السّخام القذرة سيما وأنت الذي حكّم بيننا، بل كيلاً يفلت كراسّوس من العقاب لبيعه دخانا* لذلك العُضروط إمليانوس.

61 - تهمة الدّمية الشّيطانيّة وشهادة ساترنيوس

أشاروا عند قراءتهم رسالة بودنتلّة، إلى جرم آخر يتعلّق بصنع دمية يدعون أنّي أعددتها في مشغل خفيّ من أجود أنواع الخشب لغرض كيد السّحرة، ومع أنّها صنّعت على شكل هيكل عظميّ قبيح وفظيع، أعكف على عبادتها وأدعوها بالكلمة اليونانيّة "باسيلوس" (أي الملك)، ها أنا أقفو خطاهم بالترتيب إن لم تخنّي ذاكرتي، أخذا نسيج أكاذيبهم واحدة تلو أخرى فأنقضه أنكاثا، كيف أمكن ترى أن يصنع في الخفاء التّمثال الذي تذكرون، وأنتم لا تجهلون صانعه، حتّى أنكم طلبتم حضوره؟ ها قد حضر الصّانع كرنليوس ساترنيوس المشهود له عند كلّ مواطنيه بجودة الصّنع وكرم الخلق، والذي سرد لك يا مكسيموس قبل قليل عند استجوابك المتأّتي له بصدق وأمانة كلّ الأحداث بالترتيب، ذكر أنّي رأيتُ عنده كثيرا من الأشكال الهندسيّة مصنوعة من خشب البقس بفنّ ومهارة، فطلبتُ منه مبهورا بفنّه أن يصنع لي بعض التّحف وأن ينحت لي في نفس الوقت من أيّة خامة على أن تكون من الخشب تمثالا لأيّ إله شاء لأقوم بعباداتي عنده كدأبي، فجربّ البقس أوّلا، في الأثناء، وبينما كنت أقضي بعض الوقت في الرّيف، أحضر له ربيبي سيكينوس بنتيانوس، بنيّة إسداء مبرّة لي، قطعاً من الأبنوس طلبها من

السّيّدة الفضلى كابتولينّة، طالبا منه استخدام هذه الخامة الأندر والأبقى بالأحرى، ومؤكّدا أنّ التّحفة ستكون قطعاً هديّة ظريفة تعجّيني من أوّل نظرة، أخبرك كذلك أنّه صنعها بناء على تعليماته إذّاك بعد توقّف قطع الأبنوس، هكذا استطاع بتجميع تلك الألواح بإحكام أن يشكّل منها تمثالا صغيرا لمركوربيوس.

62 - الرّد على تهمة الدّمية الشّيطانيّة

سمعتُ منه كلّ هذه المعلومات كما أذكرها، كذلك أكّد الشّابّ الكرم ابن السّيّدة كابتولينّة، الحاضر هنا، لما استجوبته نفس المعلومات: أنّ بنتيانوس هو الذي استجلب الألواح، وبنتيانوس هو الذي حملها إلى الصّانع ساترنيوس، كذلك لم ينف أحد أن يكون بنتيانوس تسلّم من ساترنيوس التّمثال جاهزا ثمّ قدّمه لي هديّة، بعد إثبات كلّ هذه الحقائق علنا وأمام الجميع، هل بقي شيء خاف يبرّر أيّة ظنّة عن ممارستي للسّحر؟ بل هل بقي شيء لا يثبت كذبكم السّافر؟ زعمتم أن قد صنّع خفيّة ما أو عز بصنعه بنتيانوس الفارس* الأكرم ابن الأكرمين، وجّره ساترنيوس الرّجل المحترم المشهود له بالفضل بين مواطنيه جالسا في مشغله برأى من الجميع، وأحضرتّه من سخيّ فضلها سيّدة محترمة، ما علم به قبل صنعه وبعده عديد الخدم والأصحاب المتردّدين على بيتي، لا يخجلكم الافتراء عليّ بأنّي فتشّستُ عن الخشب كثيرا في المدينة* كلّها، مع علمكم بغياي في تلك الفترة، وثبوت أنّي طلبتُ إعداده من أيّة مادّة متوفّرة،

كانت كذبتكم الثالثة أنني صنعتها على شكل جثة مريعة عارية من اللحم، ضامرا بل مفرغا تماما من الأحشاء، فظيعا وشبيها بالشبح، إن وجدتم بين أيديكم حجة دامغة كهذه على ممارستي للسحر، فلم لم تطالبوني بإحضارها؟ أليمكنكم ترى أن تكذبوا كما تشاؤون في غياب الدليل الملموس؟ لكن من حسن الاتفاق أن لي عادة أحبطت لديكم شنشنة الكذب، فقد اعتدت أن أحمل حيثما رحمت تمثالا لأحد الآلهة مخبوءا بين كتبي، وأنعبد له أيام الأعياد مقدما له البخور والخمر وذبيحة أحيانا، لذا لما سمعتهم الساعة يرددون بلا حياء كذبهم السافر عن الهيكل العظمي، طلبت من أحد أن يستقل عربة ويأتي لي من بيتي بتمثال مركوريوس الذي صنعه لي ساترنيوس، وها هو أمام عينيك*، فليتأملوه وليتلتمسوه وليتفحصوه.

هوذا أمامكم التمثال الذي يدعوه ذلك المجرم هيكلًا! أنسمعون دمدمة الاستنكار تتعالى من كل الحاضرين؟ أنسمعون إدانة كذبكم؟ ويحكم ألا تخجلون من كل هذه الافتراءات؟ أهذا هو الهيكل العظمي؟ أهذا هو الشبح المريع؟ أهذا ما تسمونه شيطانا*؟ أهذا عمل ساحر أم تمثال عادي ومتداول؟ خذه يا مكسيموس، أرجوك، وتأمله، حسن أن تسلم طرفه مقدسة ليدبك التفتين التفتين، انظر أي جسم جميل زاخر بقوة الرياضيين، وأي محيا رباني بشوش، وكيف تنسرح لحيته على عذاريه بهية تسر الناظرين، وكيف ردت خصال شعره من رأسه لتظهر أسفل خوذته، وكيف يبرز بهجة فوق صدغيه

جناحان متشابهان، وكيف انسدل رداؤه بأناقة حول كتفيه، فمن يجرؤ على القول إن هذا هيكل حتما لم يرقط تماثيل الآلهة أو هو لا يعبرها بالا، ومن يعد هذا من هييم الجنة به جنة لا شك.

64 - إله أبوليوس

أما أنت يا إميليانوس، فعسى هذا الإله، الرسول بين العالمين العلوي والسفلي، أن يحل بك جزاء كذبك غضب آلهة كليهما، ويبرز قبالة عينيك باستمرار أينما كنت أنواع الأخيلة الهابة من عالم الأموات ظلالا وأشباحا وأرواحا، وكل خطرات الليالي وكل مراعب الأجنات وكل أهوال الأحداث التي ما أنت- بسنك وما تستحق فعالك- عنها ببعيد، ثم إننا نحن معشر الأفلاطونيين لا نعرف إلا البهيج والميمون والقدسي والترفيح والسماوي، بل إن هذه الطائفة، في سعيها إلى الارتقاء بالنفس بحثت حتى عمّا يفوق السماء رفعة وارتقت إلى أقصى حدود الكون، يعلم حقيقة أقوال مكسيموس الذي قرأ باهتمام عن "محل فوق السماء" وعن "مناطق السماء الأعلى" في "فيدروس"، كذلك يفهم مكسيموس جيدا ردي على سؤالكم عمن يكون ذلك بأن أفلاطون، لا أنا، أول من دعاه "الملك" قائلا: "كل الكائنات تابعة لملك الأكوان، وكلها تستمد منه وجودها"، تسألون عمن هو ذلك الملك، علّة وسبب وأصل كل الطبيعة، باري النفس الأعلى، حافظ كل الأحياء الحيّ الأبدّي، صانع كونه الدائب، لكن الصانع بلا عناء والحافظ بلا انشغال والمنشئ بلا ولادة، الذي لا يحويه مكان ولا زمان ولا أيّ حين، ولذلك لا يمكن أن يتعقله غير نذر قلائل ولا يستطيع له أحد وصفا، هأنذا أزيد ظنونك بخصوص ممارستي

السحر: إذ لن أجيبك يا إمليانوس عمّن أعبد باسم "الملك". بل حتى لو سألني الوالي عن هويّة ربّي لاحتفظت بصمتي.

65 - تعليل اختيار الخشب لتمثال معبوده

عن الاسم قلتُ ما يفني بالعرض في الوقت الحاضر. يبقى- وأنا لا أجهل- أنّ بوّد بعض الحضور المحيطين بي أن يسمعوا لماذا أردتُ أن يُصنع التمثال لا من فضّة أو ذهب، بل من الخشب حديداً. وإخالهم يريدون معرفة ذلك لا لتبريري بل لفهم اختياري* حتى تطمئنّ أنفسهم تماماً لما يرون أنّي دحضتُ بنحو شاف واف كلّ مظنّة. ليسمع إذن من غرضه الفهم، لكن بتيقظ وتنبه قدر المستطاع. إذ سيسمع أقوال أفلاطون، وقد بلغ الشيوخوخة، في كتاب "القوانين" آخر مؤلفاته:

"يحسن بالإنسان الوسط أن يقدّم للآلهة هدايا وسطاً، الأرض والموقد في كلّ بيت نذر للآلهة، فلا ينذر أحدكم للآلهة غيرهما".

بهذا يمنع أيّاً من إقامة معابد خاصّة إذ يرى أنّ المعابد العامّة تكفي المواطنين لذبح نسكهم، ويضيف:

"الذهب والفضّة، سواء ما هو ملك خاصّ أو ما يوجد في معابد المدن الأخرى، مثار الأطماع، العاج الآتي من جسد فارفته الرّوح عطاء غير مبرور، الحديد والنحاس يُستخدمان في الحرب، فلمن أراد تقديم هدي أن يعطي قطعة من الخشب أو كذلك من الحجر".

يبدولي يا مكسيموس وبا حضرات المستشارين من تأييد

جميع الحاضرين أنّي استخدمت بكفاءة أفلاطون الذي ترون امثالني لقوانينه* كمرشد لي في حياتي، وكمحام عني في قضيتي.

66 - التّساؤل عن دوافع إمليانوس لرفع دعواه

والآن حان الوقت لأولي اهتمامي لرسالة بودنتلّة، لذا عليّ أن أتبع مسلسل القضية بأكملها منذ البداية حتى يظهر بجلاء للجميع أنّي لو كنتُ أفكر بأيّ ربح- وفق ما يردّدون عن اجتياحي بيت بودنتلّة طمعا في مالها-، لكان الأخرى بي بالعكس أن أفرّ باستمرار بعيداً عن هذا البيت، فمن هذه الناحية كما من نواح أخرى كان زواجي قليل التوفيق مضراً بمصلحتي لولا أنّ زوجتي عوّضت عن كلّ هذه السّلبات بكرم شمائلها، لا يمكن حقاً أن نجد من سبب سوى الحسد العقيم لإقامة هذه الدّعوى ضدّي فضلاً عمّا دبر لي من عديد المكائد المهلكات. وإلاّ فلم يتأثر إمليانوس حتى لو اكتشف حقاً أنّي ساحر، مادام لم يؤذني أيّ فعل بل ولا حتى أدنى قول، ليبدو كأنه يسعى إلى الثأر منّي لثيرة بيننا؟ كذلك لا يتهمني طلباً للمجد، شأن مرقس أنطونيوس مع قنايوس كريبون أو قايوس مقيوس* مع أولوس ألبقيوس*، أو بلبايوس سلبقيوس* مع قنيوس نربانوس*، وقايوس فريوس* مع مانيوس أكوليوس* وقايوس كريبون* مع كونتوس ميتلوس*. لا شك أنّ هؤلاء الشّبّان الواسعي الأطلاع كانوا بذلك يفتتحون عملهم في القضاء ليعرفهم مواطنوهم من خلال محاكمة شهيرة، وتلك عادة سُمح بها لدى القدماء للشّبّان المبتدئين بغرض إبراز موهبتهم، وانقرضت منذ زمن طويل. وحتى لو لم

تزل متداولة إلى هذا العصر. فما أبعد ما ستكون عن صاحبنا. فإبراز الفصاحة لا يوافق جلفا غفلا. ولا حبّ الجد علجا رثيالا. ولا الشروع في احتراف الحاماة شيخا ما هو عن التابوت ببعيد. إلا إن كان إميليانوس ربّما أراد توقيع عقاب على نفسه وأقام هذه الدّعى لتقوم سلوكه بعدما ضاق ذرعا بسببئات أعماله. لكنني لا أكاد أصدّق صدور هذا حتّى من إميليانوس. لا أقصد الإفريقيّ هذا بل سمّيه فاتح إفريقيا ونومنتية* والحسيب* فضلا عن ذلك. ولا أظنّ هذا الأحمق قادرا لا على أن يكره ذميم الفعال فقط. بل حتّى أن يعي قبحها.

67 - ملخص التّهم بخصوص زواجه ببودنتلة

ما الأمر إذن؟ من الواضح للجميع أنّ لا شيء سوى الحقد دفع هذا الشّخص وهّرنيوس محرّضه الذي سأحدّث عنه قريبا وأعداء آخرين لي إلى حبك فرى السّحرضدي. هناك خمس تهم يجب أن أناقشها.

فإن صدقتني ذاكرتي. أخذوا عليّ بخصوص بودنتلة النّقاط التالية. إحداها قولهم إنّها لم تبغ الرّواج قطّ بعد زوجها الأوّل لكنّ عزائمي أرضختها. تتعلّق الأخرى برسالتها التي يزعمونها تُقرّ بسحري. في المقام الثالث والرّابع. شتّعوا عليّ زواجها وهي في السّنتين بدافع الشّهوة. وتوقيع عقد زواجنا في بيتها بالرّيف لا في المدينة. التّهمة الأخيرة والأشنع تتعلّق بالمهر: هنا حاولوا بكلّ قواهم نشر كلّ سمومهم*. هنا ما كان يقضّ مضاجعهم. فقد ادّعوا أنّي حصلت أوّل عقد قراننا على مهر ضخم من

زوجتي الولهي بمنأى عن الشّهود في بيتها بالرّيف. هأنذا سأثبت مدى زيف دعاويهم وسخفها وبطلانها. وسأفتّدها بسهولة ودون ترك أيّ مجال للجدل. حتّى إثني لأخشى وحقّ الألهة أن تظنّوني يا مكسيموس ويا حضرات المستشارين دفعت المدّعي سرّا وحرّضته كي أجد فرصة لإطفاء غليّ أمام الجميع. صدّقوني. فقد يفهم الأمر بهذا النّحو لا شكّ. ومن الصّعب عليّ حقّا أن منعكم من التّفكير بأنّ دعوى يمثل هذا السّخف هي من تدبيري الذّكيّ. لا من مبادرة متّهمي الغبيّة*.

68 - قصّة بودنتلة

والآن. بينما أتابع بإيجاز مسلسل الأحداث. ليضطرّ إميليانوس نفسه. بعد انكشاف الحقيقة. إلى الإقرار بأنّه جرّم مخطئا إلى معاداتي ومال عن الحقّ ميلا عظيما. أطلب منكم أن تتبينوا بتنبّه وتروّ. كما فعلتم حتّى الآن. بل وأكثر إن استطعتم. مصدر وأساس هذه القضيّة.

أجبت إميلية بودنتلة، زوجتي حاضرا. من رجل يدعى سيكينوس أميكوس تزوّجته سابقا. ولديها بنتيانوس وبودنس اللّذين تركهما والدهما يتيمين في كفالة جدّهما. إذ مات أميكوس وأبوه على قيد الحياة. وطوال حوالي أربعة عشر عاما. اعتنّت بتربيتهمما بتفان جدير بالتّنويه. لكنّها لم تبغ أرملة طوال تلك السّنين وهي لا تزال في زهرة العمر مختارة. وإنّما كان جدّ ولديها يحاول جاهدا تزويجها غصبا عنها بابنه الآخر سيكينوس كلاروس. رادّا لذلك كلّ الخطّاب. مهدّدا إياها فوق ذلك بحرمان

ولديها مما ترك لهما أبوهما في وصيته إن تزوجتُ برجل من خارج الأسرة*. فلما رأَت تلك المرأة العاقلة المتفانية في سبيل ولديها إصراره على الترتيب الذي عرض عليها، وكيلا يحصل لابنيها ضرر بسببها، وقَّعت عقدا مع سيكينوس كلاروس الرَّجل الذي فُرض عليها الزَّواج به لكنَّها حالت بشتَّى الدَّرَائِعِ دون إتمام الزَّواج* حتَّى مات جدُّ ابنيها تاركا للولدين ميراثهما. هكذا صار بنتيانوس أكبرهما كفيلاً أخيه.

69 - قرار بودنتلة الزَّواج

بعدما تخلَّصتُ من ذلك الهاجس، ولما كان أبرز الأعيان يطلِّبونها للزَّواج، قرَّرتُ ألاَّ تستمرَّ في ترمِّلها، فحتَّى إن أمكنها حَمَل سقام الوحدة، لم تكن تستطيع حَمَل سقم جسدها، فتلك المرأة العَقَّة البتول التي أذوتها سنو ترمِّلها العديدة بدون أية زلَّة أو مغامرة، وحُرمت من ألفة العشير، وأضرَّ بحشاها طول الجمام، كانت تعاني من آلام مضمينة ناشئة بداخل رحمها المُعنى، حتَّى لُتَشْفِي أحيانا على مفارقة الحياة.

وقد اتَّفَق الأطباء والقوابل على البحث عن سبب مرضها في غياب العلاقة الزَّوجية وعلى توقُّع ازدياد علَّتها وتفاقم معاناتها بمَرَّ الأيام، وما دامت لا تزال في العمر فضلة، فعليها أن تعالج صحتَّها بالزَّواج.

وقد أيد قرارها الآخرون، ومنهم أولًا وبالذَّات إميليانوس الذي أكَّد قبل قليل في كذب سافر أنَّ بودنتلة لم تفكَّر في الزَّواج أبدا قبل أن ترضخها عزائمي الشَّيطانية، وأنَّه وجدني أنا وحدي الذي

انتهكتُ بطلاسمي وعقاقيري ترمِّلها، كما لو كان ضربا من البكارة، كثيرا ما سمعتُ هذا القول الذي لا يخلو من الصَّواب: أنَّه يحسن بالكاذب أن تكون له ذاكرة. لكنَّك يا إميليانوس لا تذكر أنَّك، قبل أن آتي إلى أويَّة، كتبتُ أنت أيضا رسالة إلى ابنيها بنتيانوس الذي كان يعيشُ إذَّاك برومية وقد بلغ مبلغ الرَّجال تشيير فيها بأن تزوِّج. ناولني الرِّسالة، أو بالأحرى أعطه إيَّاهَا: ليقرأ بصوته ولتفحِّمه كلماته. (...)

أهذه رسالتك؟ لِمَ امتنعت؟ فما بمقدورك الخجل! أهذا توفيقك؟ اقرأ أرجوك بنحو أوضح، ليفهم الجميع كم يتباين لسانه مع يده، وكم خلافه معي أقلَّ من خلافه مع ذاته.

70 - قراءة رسالة إميليانوس يؤيِّد فيها زواج بودنتلة

أكتبت يا إميليانوس ما فُرى عليك؟ "أعلم أنَّها تريد وعليها أن تزوِّج، لكن أجهل من ستختار". أصبت: كنتُ جهل. فبودنتلة التي تعلم جيِّدا مكرك السَّيِّء كانت خدَّتكَ فقط عن مسألة زواجها، ولا تذكر شيئا عن خاطبها، لكنَّك لتفكيرك بأنَّها تنوي الزَّواج من أخيك كلاروس والجَّرارِك وراء أمل خَلِّب دفعت بنتيانوس أيضا إلى الموافقة، لو تزوِّجتُ إذن من كلاروس، ذلك الرَّجل الجلف والعجوز الفاني، لقلتُ إذَّاك إنَّها تزوِّجتُ بمحض إرادتها ودون أيِّ عمل سحر، ولأنَّها اختارت شابًا كما تصفون، تزعمها فعَلت ذلك بتأثير السَّحر وإلاَّ فقد كانت دوما تزدري الزَّواج، لم تدرِ أيَّها الفاجر أنَّ رسالتك حول الموضوع لا تزال بحوزتها، لم تدرِ أنَّك ستُفحِّم وبشهادتك أنت نفسك، غير أنَّ بودنتلة، لعلمها بأنَّك قلب لا إلَّ

لك ولا ذمة، وفي نفس الوقت وبنفس الدرجة كاذب وسفيه أثرت الاحتفاظ برسالتك كشهادة ومؤشر على إرادتك، على التفریط فيها.

هذا وقد كتبتُ هي نفسها عن الموضوع إلى ابنها بنتيانوس برومية، وأبلغته كل مبررات مشروعه، ذكرتُ له كل شيء عن صحتها، وأنه لم يبق موجب لاستمرارها في نهج حياتها المعتاد، وأنها اجتهدت بترملها الطويل مستهينة بصحتها لتحفظ لهما تركة والدهما واعتنت بحرص بتنميتها، وأنه بمشيئة الآلهة بات مرشحاً للزواج وأخوه لارتداء ثوب الشبان، ثم طلبتُ في آخر رسالتها أن يقبل أخيراً تخفيف بؤس وحدتها ومرضاها قائلة إنه ليس ثمة ما يخشيان بشأن حبها لهما وحكمها النهائي وأنها كما كانت معهما أرملة ستكون كذلك زوجة، سأطلب أن تُقرأ نسخة من هذه الرسالة الموجهة إلى ابنها. (...)

71 - عودة بنتيانوس إلى أوية خوفاً من زواج أمه برجل

طامع في مالها

أظنّ بإمكان أيّ أحد أن يرى بوضوح كاف أنّ بودنتلة لم تثنها رفاي فسرا عن الاستمرار بإصرار في ترملها بل فعلتُ بحض إرادتها- إذ لم تكن تعارض فكرة الزواج- مؤثرة إتيي رماً على الآخرين، ولا أجد مبرراً لأن يُعدّ هذا الاختيار لامرأة بمثل رزانتها تهمةً ضديّ بدلاً من اعتباره شرفاً لي. وإن كنت لا أستغرب أن يتضابق إلميانوس وروفينوس من حكمها هذا، بينما يتحمّل طالبو يد بودنتلة بطيب خاطر تفضيلها لي، وقد

فعلتُ بالتحقيق متبعة رأي ابنها أكثر من رأيها الخاص. لن يمكن لإلميانوس إنكار هذه الحقيقة. فإنّ بنتيانوس بارح رومية فور استلامه رسالة أمّه مخافة أن تكون وقعت على رجل طامع في ثروتها، فتحوّل كلّ أملاكها، كما يحدث غالباً، إلى بيت زوجها. كان هذا الهاجس يؤرقه ويعذب نفسه، لأنّ كلّ أمان الثروة لنفسه ولأخيه منوط بأمالك أمّه، فقد ترك لهما جدهما إرثاً متواضعاً، بينما كانت أمهما تملك أربعة ملايين درهم، رصدت لا محالة منها مبلغاً لابنيها، لا بتعهد كتابي، بل وكما يحقّ لها، بمجرد وعد شفويّ. فكان يكتنم مخاوفه، ولا يجرؤ على الاعتراض جهاراً، كيلا يبدو كأنه لا يثق بها.

72 - بداية معرفته ببودنتلة

وصلتُ بمشيئة الصدفة أو القدر* والوضع على هذه الصورة بين مطلب الأمّ وتخوّف الابن، وأنا في طريقي إلى الإسكندرية، كنتُ وحقّ هرقل سأقول: "ليت شيئاً من ذلك لم يحصل أبداً" لو لم يمنعني من قوله احترامي لزوجتي. كان الفصل شتاءً، لجأتُ للاستراحة من وعناء الطريق إلى بيت أصدقائي، آل أبيوس الذين أذكرهم بكلّ حبّ وإجلال، فأقمتُ عندهم عدّة أيام، هناك أتاني بنتيانوس الذي سبق أن جمعه بي، قبل عدّة أعوام في أثينة، بعض أصدقائنا المشتركين، وباتت تربطه بي مذكاة صداقة حميمة، طفق يوليني كلّ مظاهر التّكريم والتّبجيل، ويستخبر عن صحّتي، ويحادثني بكياسة في الشؤون العاطفيّة، بدا له أنّه وجد حقاً لأمّه التّزوج الأمثل الذي يمكن ائتمانه على ثروة الأسرة بدون خطر ذي بال. في البداية أراد سبر رأيي حول الموضوع بكلام

غير مباشر. ولما لمس لِدِي الرّغبة في مواصلة طريقي. والرّهد في الرّواج. رجاني البقاء قليلاً بدعوى رغبته في المسير معي. مؤكّداً أنّ عليّ الانتظار حتّى الشّتاء المقبل بسبب حرارة صحراء سرت* ووحوشها ما دام توعمك صحّتي يحرمني من انتهاز الحاليّ. وبتوسّلات ملحّة أخذني من أصدقائي آل أبيوس لنقلي إلى بيت والدته. معلّلاً ذلك بأنّه سيكون سكننا أنسب لصحّتي ناهيك أنّي سأجد فرصة لأنعم بحريّة من هناك بمنظر البحر المحبّب لنفسي كثيراً.

73 - مساعي بنتيانوس لتزويجه بأّمه

فما زال يبذل كلّ هذه الجهود حتّى أقنعني بشديد المراس واستوصى بي خيراً أمّه وأخاه الغلام الحاضر ههنا. فساعدتهم قدر المستطاع في دراساتنا المشتركة، وتوثقت بيننا أوامر المودة. في الأثناء، استعدت صحّتي. وألقيت محاضرة أمام العموم نزولاً عند طلب أصدقائي. وقد هتف بصوت واحد كلّ من حضروا إلى دار الندوة* في حشد عظيم مجمعين. من جملة ما أقرّوا. على أنّها كانت "ممتازة". طالبين أن أبقى هناك وأصير من مواطني أوبية. إثر مغادرتنا لقاعة المحاضرات. ابتدرني بنتيانوس قائلاً إنّهُ يعدّ إجماع الجمهور على استقبالي آية من السّماء وفاقني بأنّ من رأيهِ، إن لم أر مانعاً لاقتراحه. أن تتزوّج بي أمّه التي كان كثيرون يطلبون يدها. قائلاً إنّني الشّخص الوحيد الذي يمكن أن يعهد إليه بكلّ أملاكهم ويثق فيه. وإن أرفض هذا التّكليف - فما عُرضت عليّ لعمرِك بتيمة حسناء. بل أمّ ابنيّ بجمال بين وبين. وأفكّر في الأمر فأستبقّ نفسي لزيجة أخرى حبّاً للجمال والجمال. فسوف

لا أكون إذّاك قد تصرّفت كصديق ولا كفيلسوف. دار بيننا حديث أطول من أن أذكره. إن أردتُ تذكّر ما رددتُ به على ترغيبه. وكم من الوقت ومن المرّات جاذبنا أطراف الحديث في الموضوع. وبأيّ نوع وبكم من التّوسّلات توجّه إليّ. فلم يدعني قبل الحصول أخيراً على مبتغاه. كنت أمانع لا لأنّي لم أرقب بودنتلّة جيّداً خلال السّنة التي قضيتها هناك بفضل العلاقة الحميمة التي غدت تربطنا. وأكتشف ما أوتيتُ من فضائل. بل لأنّي كنت لولعي بالسّفر عازفاً شيئاً ما عن الرّواج مخافة أن يعوق هوايتي. لكنني لم ألبث أن أحببتُ تلك المرأة بحرارة لا تقلّ عمّا لو تعلّقْتُها من تلقاء نفسي. وأقنع بنتيانوس أمّه بتفضيلي على بقيّة الخطّاب. وكان يرغب بإصرار لا يصدّق في إتمام الأمر بأسرع ما يمكن. ومشقةً حصلنا منه على إمهالنا مدّة وجيزة ريثما يتزوّج هو. ويبدأ أخوه في ارتداء ثوب الشّبان. فنتزوّج بدورنا إذّاك.

74 - الهجوم على روفينوس

ليت لي وحقّ هرقل أن أمرّ على ما يتعيّن قوله دون إلحاق ضرر فادح بقضيّتي. كيلا أبدو كأني ألوم على نزقه بنتيانوس الذي غفرتُ له بسماحة خطّاه قابلاً اعتذاره. أعترف فعلاً. فقد أخذ عليّ ذلك. أنّه بعد زواجه تنكّر لعهد السّابق وغيّر فجأة رأيه. فما كان يطلب بفارغ الصّبر وبالغ الحرص صار ينبذه وبإصرار مائل. بات آخر الأمر مستعدّاً لتحمل أيّ شيء. وفعل أيّ شيء للحيلولة دون تجسّد مشروع زواجنا. وإن كان لا يجب أن يؤخذ عليه هو تغييره القبيح لرأيه وموجدته المستجدة على أمّه. بل على حميه. ذاك الموجود هناك. هرتيوس روفينوس الذي لم يذر على

الأرض أحداً أحسن ولا أأم ولا أقدر منه، سأظهر في بضع كلمات بقدر ما أستطيع من ضبط النفس، ولأنَّ الصَّورة تقتضي ذلك*، هذا الشَّخص على حقيقته، كيلا يكون أضاع جهده سدى إن تغاضبت عنه كلياً، فهو الذي أشعل جذوة تلك الدَّعوى باذلاً في ذلك قصارى جهده، هوذا فعلاً محرَّض هذا الغلام الغرّ، هوذا مخطَّط الدَّعوى، هوذا موجَّه محامي خصمي، هوذا راشي الشَّهود، هوذا الأتون الذي سُبكتُ فيه القضية بأكملها، هوذا مشعل إلميانوس وسوطه، بل إنَّه ليفتخر أمام الجميع وبلا حَقِّظ، بأنِّي بتدبيره مطلوب كمتَّهم للقضاء، وله فعلاً في تلك الخطة الماكرة ما يخوله التَّصفيق لنفسه إطرأ فهو حابك كلِّ الدَّعاوي، ومختلق كلِّ الأكاذيب، ومهندس كلِّ الأباطيل، ومنبع كلِّ الأسواء، بؤرة المفاسد والحمازي، ووَجْر الحنا والفجور، فقد عُرف منذ مقتبل عمره بكلِّ شين ومخزية: قديماً في صباه وقبل أن يشوَّهه هذا الصَّلع، استلذَّ مع واهصيه كلِّ المنكرات، ثمَّ انغمس في شبابه في لهو المسرح الرَّاقص وميوعته الكسلى، لكنَّ حسبما أسمع، في خمول يستمرئ الجهل ويقعد عن التَّنقِّف، إذ يقال إنَّه لم يكن له من صفات الممثل سوى الصَّفافة.

75 - رسم كاريكاتوري لشخصية روفينوس

بل حتَّى الآن وفي مثل عمره- قاتله الآلهة، وحاشا أذانكم الكريمة- بيته ماخور بأتم المعنى، وكلَّ أسرته تتمرَّغ في الدَّنس والفجور: هو سفيه عديم المروءة وامرأته بغى والولدان مثلهما، ليلاً ونهاراً تفرع بابه ركلات الشَّبَّان المستهترين، ويرابط حول نوافذه الجان مغنَّين مصطخبين، ويغشى مقصفه هواة الخضف

والعريضة، وغرفة نومه مفتوحة لكلِّ الرِّناة، لا خوف على أحد من ولوجه، إلا إن لم يحمل معه للزَّوج الأجر المعلوم، هكذا اتَّخذ تدنيس مخدعه مورد رزق، كان الشَّاطر يرتزق في الماضي من جسده واليوم من جسد امرأته بشكل سافر، فمعه هو، لا أكذبكم، أجل أقول: معه هو شخصياً يتفاهم حول ليالي زوجته الكثيرون، وبين الرِّجل وامرأته المعروفة للجميع اتَّفاق: من يأت للحرم المصون بالأجر موفوراً، فلا عين رأت، وله أن يرحل متى شاء، ومن يأت خاوي الوفاض، تُعط الإشارة فيقبض عليه كزان، وكما لو أتى رواد بيته إلى مدرسة للتعلُّم، لا يُخلى سبيلهم قبل كتابة شيء*.

ولا غرو، فماذا يمكن أن يفعل ذلك التعيس بعد تفريطه في ثروة لا يستهان بها، وإن كان قد أصابها على غير ما توقع من خيَل أبيه؟ إذ أثر أبوه المدين لعدد المراضين المال على الكرامة: لما كان يطالب من كلِّ صوب بالدفع طبق تعهّداته ويمسك به كالمعتوه، كلُّ من يلاقيه، يقول: "اسكت رجاء" وينكر قدرته على التَّسديد، وتخلَّى في تسوية عقدها مع دائنيه عن كلِّ خواتيمه الذهبية وكلِّ شارات شرف طبقتته، وفي خيَل ذكي حوّل كلَّ أملاكه باسم زوجته*، فخلف، هو المعدم الأجرد الحمي بخزيه، لروفينوس هذا- لا أكذبكم- ثلاثة ملايين درهم ليبدِّرها، فقد أتاه ذلك المبلغ من تركة أمه غير مثقل بدين، فضلاً عمَّا أمدته به الحرم المصون من مهورها اليومية، مع ذلك دأب هذا البالوعة على تغييب كلِّ تلك الموارد في جوفه وبددها على القصوف في بضع سنين، حتَّى لنظنه يخشى أن يقال إنَّه يملك شيئاً ممَّا اكتسب أبوه بالغش.

تدبر هذا الرجل الفاضل ذو الخلق العظيم* ليذهب في طرق منحرفة ما اكتسب بطرق منحرفة. ولم يبق له شيء من تلك الثروة الطائلة غير فخفخته البائسة وبلعومه السحيق.

76 - بنت روفينوس

بيد أن زوجته التي غدت عجوزا تقريبا وأنهكها شغل السنين أبت أن تلتهم مفاسده البيت بأكمله. لكن لم يُجد نفعا تداول البنت بحض أمها بين الشبان الأثرياء الذين كانت تُسلم إليهم كخطاب محتملين للتجربة. ولو لم تقع على طيبة بنتيانوس، لكانت على الأرجح تقعد حتى الآن في عقردارها أرملة قبل الزواج. وقد أعطاها بنتيانوس. رغم جهودنا لردعه، صفة الزوجة الزائفة الوهمية، وإن لم يكن يجهل أن التي تزوجها تخلّى عنها قبيل ذلك بعدما تخم منها شاب محترم كانت سابقا خطيبته. لذا أنته عروس واثقة بنفسها جريئة، جردت من الحياء، وتفسخت نضرة عذرتها، وبلبت طرحتها، بكرا من جديد بعد طلاقها الحديث، حاملة اسم الفتاة لا بكارتها. نُقلت إلى بيت زوجها على محفة يحملها ثمانية خدم، ورأيتم بالتحقيق أنتم الذين حضتم أية نظرات خليعة كانت تجيل في الشبان حوالبها، وكم كانت تتجاوز كل الحدود في تبرجها أمام الحاضرين. من لم يتعرّف على تعليم الأم وهو يرى في البنت الفم المحضّب بالأصباغ والحديين المطّرين بالمساحيق والعينين المفعمتين بالإغراء. كان مهرها قد أخذ بالكامل إلى آخر فلس من مقرض في اليوم السابق وأكبر بالتأكيد بما يروم إعطاءه بيت مستنزف ومليء بالذاري.

77 - خطة روفينوس الجهنمية

لكنّ ذاك النذل بقدر ما هو محدود الموارد لامحدود المطامع، وبجشع يضاهي عُدمه التهم ملايين بوندتلة الأربعة كلّها في استباق مغرور للأحداث، وفكر في إزاحتي ليستغل بسهولة سذاجة بنتيانوس ووحودة أمّه، فطفق يقترع صهره على تزويج أمّه لي. وأشار عليه بسحب قدمه بسرعة، وما دام الأمر متاحا، من الهاوية التي زعم، وأن يأخذ هو نفسه ثروة أمّه عوض تحويلها بعلمه إلى رجل غريب، وهدد الداهية العجوز الشاب المدنف باستعادة ابنته إن لم يتصرّف كما أشار عليه، فاذفا بذلك في روعه هاجسا ناغزا، فيم الإطالة؟ حوّل الشاب الساذج الواقع فضلا عن ذلك في شباك مفاتن عروسه من نهجه إلى رأيه هو. فذهب إلى أمّه ينقل أقوال روفينوس. لكن عبثا طلب منها ذلك، بل فوق ذلك أتتته على نزقه وتقلب آرائه. فعاد لحميه بكلام خلا من كل مداراة: أنه بالتماسه أثار غضب أمّه الهادئة المزاج خلافا لطبعها الوديع، وزادها إصرارا، وقد أجابته أن ليس خافيا على أحد أنه طلب منها ذلك بإيعاز من روفينوس، بما يحدوها أكثر إلى الاستعانة بزوجها ضدّ جشعه المتكالب.

78 - حتى لو كتبت بوندتلة أنه سحرها لما كفى ذلك

لإثبات التهمة عليه

لما سمع القلبطان قوّد زوجته هذه الأقوال استشاط غضبا ولشدة ما كان يتميّز من الغيظ أخذ يتقول على تلك المرأة العفة الطهور بمحضر ابنها شتائم حقّ على مخدعه هو بالأحرى، ناعنا

إياها بالعاشقة المتصابية وإياي بالساحر ونفث السموم على مسمع من عديد الشهود الذين سأسمّيهم إن شئت، ومعلنا أنه سيفتلني بيده، فبعزة هرقل إني لا أكاد أملك نفسي من الغيظ وإن قلبي ليغلي من شدة الاستنكار*. أنهتد رجلا بإماتته بيدك أيها الأخت؟* لكن قل ويحك: بأيّة يد؟ أريد فيلوميلة* أم ميدية* أم كليتمنسترة* اللاتي لما تمثّل أدوارهنّ تمثّلها بلا خنجر*: نعم إلى هذا الحدّ يصل بك خور نفسك وخوفك من السلاح.

لكنني لن أتمادى أكثر في استطرادي. بعدما رأيت بودنتلة ابنها قد ركب هواه ضدّ رأيها بتأثير غيره، ذهبت إلى الرّيف، وكتبت له قصد تأنيبه رسالتها الشهيرة التي ذكرها، حيث تقرّ حسب مزاعمهم أنني بسحري أفقدتها صوابها وأوقعتها في حبي. لكننا وجدنا كلّ ما جاء في تلك الرّسالة، التي نسخناها بأمر منك أمام شهود بحضور كاتب بنتيانوس ومصادقة إميليانوس، مخالفا لمزاعمهم ومؤيدا لي.

79 - حتى لو كتبت بودنتلة أنه سحرها لما كفى ذلك

إدائته

رغم ذلك، حتى لو افترضناها قالت عني محتدة إني ساحر فمحتمل أن تكون، في محاولتها تبرير تصرفها لابنها، أثرت التّدرع بقوة تأثيري على تعليقه بإرادتها المحضة، وهل فيدرة* المرأة الوحيدة التي اختلفت رسالة كاذبة عن الحب؟ ألم تستخدم كلّ النساء هذا الأسلوب، مفضلات كلّما بدأن يبتغين شيئا من هذا القبيل أن يبدون كأنهنّ مرغمت. بل حتى لو فكرت

في قرارة نفسها أنني ساحر أعدّ ساحرا مجرّد أن بودنتلة كتبت ذلك؟ أنتم، بكلّ أدلتكم، وكلّ شهادتكم، وبخطبتكم العريضة المستفيضة لا تثبتون عليّ تهمة السحر، فهل ستثبته هي بكلمة واحدة؟ هذا والمفروض أن يُنظر إلى ما يتمّ إقراره في محكمة بجديّة فوق ما يُنظر به إلى ما يُكتب في رسالة. لم لا تُثبت التّهمة عليّ استنادا إلى أفعالي بدلا من أقوال غيري؟ وإلاّ فعلى هذا المنوال سيطلب الكثيرون للمحاكمة بشتي التّهم، إن بات جائزا تصديق ما يكتب أيّ أحد في رسالة بدافع حبّ أو كراهية شخص آخر! "كتبت بودنتلة أنك ساحر: إذن أنت ساحر!" ماذا لو كتبت أنني قنصل*، أنا قنصل إذّاك؟ ماذا لو كتبت أنني رسّام أو طبيب؟ ماذا أخيرا لو كتبت أنني بريء؟ أتصدّق شيئا من ذلك مجرّد أنها فالتنه؟ كلّا بالتأكيد. ثمّ إنه حقّا لظلم عظيم أن تصدّق من أحد سيّء أقواله دون حسننها، وأن تجيز استخدام رسالته للتّجرم دون التّبرئة. يحتجّ: "لكنّها فقدت لّبها وصارت تحبّك حبا أعمى". أسلّم بذلك مؤقتا. لكن أكون كلّ محبوب ساحرا إن اتفق أن كتب محبّه ذلك؟ ها أنا بتّ الآن أظنّ بودنتلة لم تكن تحبّني يومئذ إن كتبت لطرف ثالث ما كان سيضربني بالتّأكيد!

80 - مفارقة الإقرار بالجنون. قراءة الجزء الأوّل من

الرّسالة

ثمّ قل ماذا تريد بالضبط: أكانت عاقلة أم مخبولة لما كتبت ذلك؟ ستقول: "عاقلة"؟ إذن لم تكن تحت تأثير أخذة سحرية. ستجيب: "مخبولة"؟ إذن لم تكن تعي ما كتبت، ولا ينبغي

والحال تلك استيثاقها. بل فضلا عن ذلك، لو كانت مخبولة لما كانت تعلم أنها كذلك. فكما يأتي خُلفاً من يقول إنه ساكت لأنه بكلامه ذاك ينفي سكوته وبتأكيده في حد ذاته ينقض ما يؤكد. كذلك وبدرجة أكبر لما يقول: "أنا مجنون" فذلك غير صحيح ما لم يقله وهو يعي ما يقول. وعاقل لعمرى من يدري ما هو الجنون. لكن من المحقق أن الجنون لا يستطيع إدراك ذاته، كما لا يستطيع العمى رؤية ذاته. كانت بodontلة إذن تملك رشدها إن كانت تفكر أنها فقدته*. بوسعي التماسي في هذه الاعترافات لكنني أدع الجدل جانبا. سأتلو الرسالة نفسها التي تؤكد شيئا يخالف ما زعموا بشأو كبير، وتبدو كما لو أنها أعدت خصيصا ورُتبت بسابق تدبير لهذه المحاكمة. خذها واقرأها إلى أن أقاطعك. (... أرجئ قليلا ما يلي. فقد وصلنا إلى منعرج حاسم. إلى هنا يا مكسيموس، حسبما لاحظت، لم تذكر زوجتي السحر قط. بل سردت نفس تسلسل الأحداث الذي ذكرت قبل قليل: عن ترملها الطويل. وعن علاج صحتها المتهاوية، وعن رغبتها في الزواج. وعن مناقبي التي علمتها من بنتيانوس. وعن نصحه هو نفسه بأن تنزوني بالتفضيل على سواي.

81 - روفينوس يقلب مضمون الرسالة إلى ضده

ذاك ما قرئ علينا إلى هذا الحد. بقي قسم الرسالة الذي كتب بالمثل دفاعا عني والذي يقلب الأستة في وجهي. مراده إبعاد شبهة السحر عني. وروفينوس قد تفتن في طمسه ووبراعة فائقة حرفة. ساعيا فوق ذلك إلى إثارة رأي بعض مواطني أوبه ضدي باعتباري ساحرا. سمعت الكثير بالمحادثة يا مكسيموس.

وتعلمت الكثير بالقراءة. واكتشفت الكثير بالتجربة. لكنك ستنفي قطعاً أن تكون عرفت أبدا تضليلاً بمثل ذلك الخبث. اختلق بمثل ذلك المكر. أي بلاميدس* وأي سيزيفس* بل أي يوريباتس* أو فرونداس* أتى بمثله؟ فلو قارنا كل الذين ذكرت وغيرهم ممن عرفوا بالدهاء بمكيدة روفينوس هذه وحدها لبدوا بالتحقيق بلها وسُدجا. أي افتراء عجاب! وأي مكر كبار حقيق بالسجون والزنان! من يصدق أن هذا يمكن حصوله؟ ما كان دفاعا يحول. والرسالة باقية على حالها. إلى اتهام! أعجوبة لا تصدق وحق هرقل! لكنني سأبين عمّا قريب أن هذا الأمر المتعذر تصديقه هو ما حصل بالفعل.

82 - قلب الحقائق باجتثاث الكلم من مواضعه

كان أساس تثريب الأم على ابنها بسبب ترديده إذاك أتباعا لرأي روفينوس أنني ساحر. أنا الرجل الذي مدح لها هو نفسه. وقد جاءت الكلمات بهذا النحو حرفياً: "أبوليوس ساحر. سحرني ووقعت في الحب. تعال إلي ما دمت أعقل." هذه الكلمات التي ضمنتها باليونانية اخترمها روفينوس واقتطعها من سياقها. ومضى يطوف عبر ميدان القصة. جازاً بنتيانوس وهو يبكي خلفه، ويربها للناس على أنها اعتراف صريح من زوجتي. ويعرض للقراءة فقرة رسالة زوجتي تلك إلى الحد الذي ذكرت. مخفياً ما كتب قبلها وبعدها. مردداً أنه أقطع ما أظهر. وأنه يكفي أن يعلم الناس اعتراف زوجتي بممارستي السحر. فيم التدقيق؟ بدا الأمر راجحاً للجميع. ما كتب لتبرئتي أثار علي بغضا شديدا لدى السوقة الجهلة. مضى السافل يعربد وسط الميدان ويفتح

الرسالة مرارا صائحا: "أبوليوس ساحر. تقول ذلك زوجته نفسها التي تعلمه وتعاني منه، فماذا تريدون فوق ذلك؟" لم يكن يوجد هناك من يساندني رادا: "رجاءً، أرنا الرسالة كاملة، اسمح لي برؤية كل ما فيها، بقراءتها من الأول إلى الآخر. فربّ قول إن أورد بمعزل عن سياقه بدا فرية مغرضة. يمكن حقاّ جرّم كلام أيّ متنا إن جردت أقواله المرتبطة بما قبلها من مقدّماتها قصد التحريف. إن حذفنا اعتبارا بعض الجمل من سياق النصّ وقرأنا ما كتب للتوبيخ بلهجة المؤكّد لا المستنكر. " كان يمكن يومئذ ذكر هذه الأمور وما شابها إحقاقا للحقّ. وهو ما بيّنه سياق الرسالة ذاته.

83 - تصحيح النصّ برده إلى سياقه وتنبيره باللهجة

المناسبة

فاعترف يا إميليانوس أنّك نسخت معي وأمام شاهد ما يلي*:
"كنت أرغب في الزواج للأسباب التي ذكرت لك. ولإعجابك بهذا الرجل وحرصك على إقامة علاقة أسريّة بيننا. أقنعتني بتقدمه على كلّ الآخرين. أمّا الآن بعدما أضلّك شائتونا المكرّة، فجاءها أنّ أبوليوس ساحرا! سحرني ووقعت في الحب! تعال إليّ ما دمت أعقل!" أسألك يا مكسيموس، لو كان للحروف صوت خاصّ بها- كما يقال مثلا عن الحروف المصوّتة-، لو كانت للكلمات- كما يزعم الشعراء- أجنحة فتطير أمام الناس، ألا ترى، لما استشهد روفينوس بتلك الرسالة بنحو انتقائيّ غير أمين. قارئا أقلّها وكاتما أكثرها وأحسنها، أنّ الحروف الأخرى كانت ستعلن بأعلى صوتها أنّها أخفيت ظلما وعدوانا، وستطير الكلمات المحذوفة بعيدا من

يدي روفينوس، فتملأ ساحة القصة بأكملها بضجيجها: "أنّها هي أيضا أرسلت من قبل بودنتلة، ولها هي الأخرى ما كلّفت بتبليغه، وألاّ يصدّق الناس ذلك الرّجل عدم الأمانة فبيح الفعال في محاولته خريف رسالة غيره، بل يستمعوا بالأخرى إلى قولها هي: بودنتلة لا تتهم أبوليوس بالسّحر بل تبرّئه من هذه التّهمة التي يوجّهها إليه روفينوس."* ولئن لم يتمّ يومذاك ذكر كلّ هذه الاعتبارات، فإنّها تنجلي اليوم، حيث هي أجدى. أسطع من الضياء. ها قد ظهرت كلّ الأعيبك يا روفينوس، وها قد انفكّت أحابيلك، وانكشفت أكاذيبك، وحصحص الحقّ بعد انطماس وزهق الباطل كما لو طواه غمر سحيق.

84 - مزيد من التوضيحات

استشهدتم برسالة بودنتلة، وهأنذا أهزمكم بنفس تلك الرسالة التي إن شئتتم الاستماع إلى خاتمتها فلن أمانع. اقرأ بأية ألفاظ اختتمت الرسالة المرأة المسحورة المحبولة المجنونة العاشقة*: "أنا لم أسحر ولستُ بالعاشقة. ذاك قدري." أبكمّ حاجة إلى المزيد؟ بودنتلة تكذبكم وتعلن بأعلى صوتها، كالمنادي، سلامة عقلها ضدّ تخريصاتكم، وإضافة إلى ذلك تعزو علّة أو موجب زواجها للقدر الذي يبعد السّحر عنه كثيرا بل إنّه يستبعد السّحر كلّيا، إذ أيّة قوّة تبقى للرقى والعقاقير إن كان القدر كالتسبيل العارم لا سبيل إلى احتوائه ولا إلى دفعه؟ بقولها هذا نفتّ بودنتلة لا تهمة السّحر عني فقط، بل وجود السّحر أصلا.

حسنٌ أن احتفظ بنتيانوس برسالة أمه كعادته، وحسنٌ أن استبقْتكم سرعة المحاكمة فلم يتسنَّ لكم أن تغيروا على رسالكم شيئاً من الرسالة، يعود الفضل في هذا إليك يا مكسيموس وإلى حيطتك وتدبرك، فمنذ البداية أدركت حقيقة افتراءاتهم، فسارعت كيلاً بعزّها مرّ الزّمان ودمّرتها من الأساس دون منحها آية مهلة، تصوّر الآن فرضاً أن الأمّ كشفت في رسالة سرّيّة لابنها شيئاً عن حبّها، أكان من الجائز يا روفينوس، أكان لا أقول من البرّ بل على الأقلّ من المروعة كشفت تلك الرسالة ونشرها، وبإشهار ابنها خصوصاً؟ لكن ألسنتُ أحرق إذ أطلب منك صيانة عرض غيرك أنت الذي قرّطت في عرضك؟

85 - التّشنيع على بودنس لكشف رسالة أمه أمام

النّاس

لكن ما لي أشكو من الماضي، والحاضرُ أمرٌ وأدهى؟ أيصل إفسادكم ذلك الغلام التّعيس أن يقرأ رسالة أمه وهو بظنّها تتعلّق بغراميّاتها في محكمة الإقليم وعلى مسمع رجل بجلال كلوديوس مكسيموس، وأمام تماثيل الامبراطور بيوس* يتّهم الابن أمه بمخاز مخجلة وقصص غراميّة؟ من متّاً بارد الطّبع إلى درجة أنّ هذا لا يثيره؟ أتلقط يا لئيم في تلك الرسالة خلجات ضمير أمك؟ أترقب عينيها؟ أتعدّ تنهّداتها؟ أتلقصص على عواطفها؟ أتعترض مراسلاتها؟ أتقيّد وجدانها؟ أتحقق في ما تفعل في مخدعها كيلاً تُعدّ أمك لا أقول عاشقة بل ولا حتّى امرأة بتانا؟ أتفكر أنّ نفسها لا تتسع لغير أصرة الأمومة المقدّسة؟* وإبؤس رحمك يا بودنتلة! العقم ولا الضّنا! شاهت

الأشهر العشرة*! وبئست أعوام التّرمل الأربعة عشر! أسمع أنّ الأفعوان يتسلّل من رحم أمه إلى النّور ناهشاً جنبها، بحيث يولد بجرم في حقّ أمه*. لكنتك تتلقّين وأنت حيّة تنظرين لدغات الذّع وأوجع من ابنك الذي بلغ الحلم! هُتك سترك، وانتُهك عرضك، وانتُبش صدرك، وبُعثر ما في حشاك! أبهذا جّازي شأن الولد البارّ أمك التي وهبتك الحياة وحفظت لك إرث أبيك وانقطعت لتربيتك أربعة عشر حولاً بالتّمّام؟ ألقنك هذه الدّروس عمك كيلاً تُقدم على الرّواج إن اكتشفت أنّك ستنجب أبناء يكونون مثلك؟ هناك ذاك البيت الذي لا يجهله أحد: "أبغض الغلمان الذين اكتسبوا الحكمة قبل أوانها"، فمن لا يمقت ويبغض في المقابل غلاماً اكتسب المكر قبل أوانه، إذ يرى فيه وحشاً صلب العود بالإجرام لا بالأعوام، فعلاً للأذى ولما يبلغ الكفاءة، في شرخ الصّبا ومكر المشيب؟ بل يزيد مضرّته أنّه مسموح له بالإبذاء لأنّه لما يبلغ أهليّة العقاب، وإن توقّرت فيه الكفاءة للإساءة، أقول الإساءة؟ كلاً بل الجريمة البشعة النّكراء الأشنع من أن تختمل في حقّ والدته.

86 - إشهار بودنس رسالة أمه جريمة نكراء

بسبب قانون الإنسانيّة المشترك منع الأثنيّون أن تُقرأ إحدى رسائل عدوّهم فيليب المقدونيّ التي احتجزوها لقراءة كلّ واحدة منها أمام عموم المواطنين، كان قد كتبها إلى زوجته أوليباس*. مفضّلين إعفاء عدوّهم على نشر سرّ الرّوجيّة، ومعتبرين أنّ قانون الإنسانيّة المقدّس مقدّم على حقّهم الخاصّ في الانتقام، كذلك تصرّف أعداء ضدّ عدوّهم، وكذلك تصرّفت أنت الابن ضدّ

والدتك. ترى أنني أؤكد تشابه الموقفين. إلا أنك أنت الابن قرأت رسالة أمك التي كتبتها حسب زعمك عن حبها في هذا الجمع الذي لو طلب منك أن تلقي عليه قصيدة لشاعر خليع لما جرؤت بالتحقيق إذ كان سيمنعك عن ذلك شيء من الحياء. بل ما كان لك أن تلتقط أبدا كتاب أمك. هذا لو كنت تلتقط مثله في مجال آخر*.

ما أنكرها جساراً أن تعطي رسالتك بنفسك لتقرأ. وما أعظمها وقاحة وما أكبرها إساءة وما أقبحها مخزية أن تكون الرسالة كتبت عن أمك التي ترعرت في حضنها إلى هذا اليوم. وقد أرسلتها سرا إلى بنتيانوس* بالتأكيد كيلا تكون قد أجمت مرة واحدة ويطوي النسيان ذباك الصنيع الجميل لك. أما فهمت يا شقي أن عمك سمح لك بفعل ذلك ليبرئ نفسه لاحقا عند الناس. إن يعلموا من رسالتك أنك حتى قبل الانتقال إلى بيته. وحتى وأنت تظهر التودد لأمك. كنت ثعلبانا مداجيا غدارا؟

87 - الرسالة المنحولة عليه. سلامة عقل بودنتلة

في الواقع لا أود الإيحاء بأن إلميانوس كان غيبا إلى حد التفكير أن رسالة الغلام المدعي علي ستلحق بي ضررا. هناك أيضا تلك الرسالة المنحولة علي- وما خطتها يدي ولا مما يقبل التصديق أنني أنشأتها- وأرادوا بها إظهار أنني كنت أستميل زوجتي بتملقها. فلم أتملقها ما دمت أثق بقوة سحري؟ ثم بأية وسيلة وصلت إليهم رسالة بعثت إلى بودنتلة بواسطة شخص مضمون الإخلاص حتما كما يحرض الناس عادة على تأمينه في

هذه الحال؟ ثم لم كتبتها بألفاظ يمثل تلك الرداءة. ولغة يمثل تلك الركاكة. وهم يقولون أنني لا أجهل اللغة اليونانية على الإطلاق؟ ولم أتلف إليها يمثل تلك الإطراءات الجوفاء والسمنة وهم يقولون أنني أتلهى بأشعار الغزل لهو العارف المتمكن؟ هذا أمر واضح لأي شخص: من لم يستطع قبل قراءة رسالة بودنتلة المكتوبة باليونانية قرأ هذه. لكونها من وضعه. ببسر وقيمها بمهارة.

سأكون قد قلت عن موضوع الرسائل القدر الكافي عندما أضيف هذه الملاحظة الوحيدة: هي أن بودنتلة التي كتبت بلهجة السخرية والهزء: "تعال الآن ما دمت أتعقل". دعت إليها ولديها وكتبتها بعد هذه الرسالة وعاشت معهم حوالي شهرين. فليقل هذا الابن البارأي أمر شاذ رأى أمه تفعل أو تقول بسبب جنونها طيلة تلك المدة. لينكر أنها كانت تشرف بكل اقتدار على أعمال الكارين والرعاة والسواس. لينكر خذيرها أخاه بنتيانوس بحزم من أحابيل روفينوس. لينكر تأنيبها الصريح له على مداولته الرسالة التي بعثتها إليه بين الناس. وقراءته لها بدون حسن نية. لينكر بعد كل ما قلت أن أمه تزوجت مني في بيتها بالريف لأنه المكان المتفق عليه مسبقا. الحق أنا استطبنا الزواج في ضيعة بالضاحية هربا من توافد المواطنين الطامعين في الإكراميات فقبل مدة غير طويلة وزعت بودنتلة من حر مالها خمسين ألف درهم على جمهور المهنتين يوم تزوج بنتيانوس وارتدى هذا الغلام ثوب الشبان. وكذلك خاشيا للولائم والمزعجات التي يضطر العرسان لمواجهتها بعدما غدت عادة متبعة أو تكاد.